

طلائعية التنظير النقدي عند عبد الله الركيبي

أ/ محمد الأمين بحري

جامعة محمد خيضر - بسكرة

تتجه هذه المداخلة بالخصوص إلى المجهود التنظيري النقدي للدكتور عبد الله الركيبي في مختلف الأنواع الأدبية السائدة في الأدب الجزائري الذي تناولته في مختلف كتاباته، عرضا ونقدا وتحليلا وتحقيقا، مركزا في كل ذلك على الجانب المنهجي الذي يعد سر كل تجديد و تحديث في مسيرة الفن الأدبي لكل أمة، ولما كان إسهام الرجل لا ينكر في تطوير الأدب الجزائري بداية من نقده المنهجي خاصة في العصر الحديث والمعاصر فقد استحق أن نصنف مجهوداته في التنظير النقدي في خانة الطلائعية لما كان لها من أثر عميق في تأسيس النقد الأدبي الجزائري ودفع عجلته إلى مصاف المدارس النقدية الحديثة.

و قد ركزنا على إبراز نظريته في: أولا - النثر الجزائري وأنواعه، ثانيا - في الشعر الجزائري و تطوره، ثالثا - المدرسة النقدية الخليفة بهذا الأدب والتي نادى الناقد بتأسيسها، رابعا - المنهج النقدي الحديث لدراسة الأدب الجزائري، مشيرين في كل محور إلى ملامح الطلائعية والتحديث في نظرية الركيبي النقدية .

أولا : من أجل نظرية في النثر الجزائري :

لقد كان مشروع قيام مدرسة نقدية جزائرية هاجس عبد الله الركيبي وهو يدرس بنهم المستكشف الغيور فنون النثر الجزائري بادئا بالقصة القصيرة، وما إن شرع في التنقيب والاستكشاف حتى راعه ذلك الإهمال الدراسي الذي حاق بهذا الأدب الغزير وعم جميع الفنون النثرية جراء عزوف الباحثين أو قتلهم، و في كل ذلك، حرمان لهذا الأدب من مكانته المتوخاة بين آداب الأمم، فبدأ يفكر في إخراج هذا الزخم الإبداعي من مأزق الإهمال الذي طاله، بواسطة منهج كفيل بإخراجه إلى الإقليمية والعالمية التي تليق بقامته، مستهلا مشروعة العظيم بوضع نظرية للأنواع النثرية الجزائرية، و هذا ما يعد قصب السبق بالنسبة لهذا الناقد الذي أدرك هجران الدراسة و نقص العناية بهذا الفن، فخصه

بالدراسة والتأريخ والتصنيف والاستشهاد، ليكون بذلك مرجعا للطلاب والأكاديميين، وفاتحا بمجهود وإرادة نادرين بابا ظل عصيا على الجميع لعهود طويلة.

وقد قام الباحث بما قام به لأنه أدرك أن " النثر قد تطور أسلوبا وموضوعا ومحتوى " (1)، فاستطلع جيل الدارسين بامتياز بأفكار لا تخلو من الحداثة، بل أكاد أقول بأنه أول من خاض غمار الحداثة النقدية في الفن النثري الذي انفرد بدراسته ونقده وتصنيف مادته، وسوف ندرك هذه الحقيقة حالما يعرف لنا الحداثة بمفهوم عصره بقوله: "...فالحداثة التي نقصدها في النثر تعني أن هناك جديداً في الموضوعات وفي الأساليب والأشكال الأدبية، أو بتعبير آخر تعني الجديد في الصياغة و الشكل، و الواقع أن التجديد الذي نعنيه هو أن هناك تغيير حدث في لغة النثر وطريقة التعبير فيه منذ بدايته الاحتلال عام 1830" (2)

أ- تطور الأشكال و المضامين الأدبية

لم يكن من المصادفة أن ينفرد عبد الله الركبي بزيادة نقد النثر وفنونه في الجزائر لأنه ببساطة كان متتبعا لتطوره وراصدا للمنى التجديدي الذي سلكه في مرحلة تاريخية حاسمة تحولت فيها الفنون النثرية من القوالب التقليدية إلى وجه معاصر لا تقليد فيه، سواء على مستوى الشكل أو المضمون، وهذا ما يعلق به هو نفسه قائلاً: "إن هذه الأشكال تطورت في القرن الحالي سواء في طريقة اللغة أو التعبير، أو في الموضوعات والمضامين، بحيث طوعت اللغة حتى تعبر عن شخصية الكاتب من جهة وعن الواقع الجديد من جهة أخرى، لأن اهتمام الكاتب تغير، ولأن رؤيته تغيرت، فاستخدام الشكل القديم يعبر عن محتوى جديداً وفكرة جديدة" (3).

حديث عن مستقبل الكتابة النثرية شكلا وروحا عصريين يجعلان من الناقد يقف في منعرج الحداثة التي تزرع روح العصر حتى في الأشكال التقليدية، إنها المضامين العصرية التي تستدعي ناقدنا لا يقل عنها حداثة كيما يتمكن من رصد الحركة التطورية لهذا الفن، و يواكب التطورات الشكلية والمضمونية التي تلحقها، وهذا ما فعله ناقدنا عندما قام بلفة كرونولوجية تعكس مواكبته لشتى التغيرات والتطورات الحاصلة على خارطة النثر الجزائري: "أما التطور الواضح فنلمسه في الأشكال الجديدة التي ظهرت منذ عصر الاتبعات و الإحياء، و منذ أن بدأت بوادر النهضة الحديثة سواء في الأدب أو في مجالات أخرى أوجدتها ظروف كثيرة سياسية واجتماعية، فكرية وحضارية (...). مما

ساعد على أن تظهر أنماط جديدة مثل المقال الأدبيو القصة القصيرة والمسرحية، والنقد الأدبي" (4). وهو ما جاء لينظر له، حيث نجده يقسم الإبداعات النثرية إلى عصور كأن يحدثنا عن عصر الانبعاث، والإحياء، والنهضة الحديثة الأمر الذي لم يشر إليه غيره.

ب/ منهج التأليف الموسوعي:

يشعر قارئ المؤلفات النقدية لعبد الله الركبي أنه إزاء موسوعة أدبية، وحتى إن لم يعترف بذلك فسيحس لا محالة بالروح الموسوعية تسري في أوصال تلك الكتابات ، وهذا ما قصد إليه الناقد أصلا وسعى إليه، بل و أكده في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه تطور النشر الجزائري الحديث بقوله: " و قد حاولت أن تكون هذه الدراسة علمية متكاملة أطمح من ورائها إلى الإجابة عن بعض الأسئلة ، كما أطمح إلى أن يجد فيها القارئ العربي ما يساعده على معرفة ما أنتجه الكتاب الجزائريون في هذا المجال " (5).

ولعل هذا ما كان سببا في اعتماده المنهج التاريخي وتوسله أداة لتحقيب العصور الأدبية وأشكالها المتجددة وهو ما يؤكد صراحة في قوله: " الواقع أن المنهج الذي اخترناه هو منهج التحليل والاستعانة بالتاريخ إلى حد ما، وقد عرضنا (...) إلى الأشكال الأدبية التقليدية وكيف تطورت بعد أن طرأت عوامل جديدة أثرت في الأدب وفي الحياة بشكل عام، وعرضنا لأسلوب الكاتب وربطنا بين اللغة وبين هذا التطور (...) وقد حاولنا ما أمكن أن نلم بالألوان النثرية التي وجدت في النشر الجزائري واستخدمنا المنهج الذي ذكرناه (التاريخي) لأن غرضنا هو بيان تطور هذا النشر الذي نتتبع جزئياته وموضوعاته" (6) .

وبذا يتبوأ الطليعة في التأليف الموسوعي في تنظيره للنقد النثري الجزائري، وهو لا يتردد في تأكيد أحقيته بالسبق في فتح هذه البوابة الجديدة في التأليف النقدي، فيصف جهوده الجبارة على هذا المستوى قائلا: " ومع ما بذلناه من مجهود في الدراسة التي تعتبر الأولى من نوعها في النشر الجزائري الحديث فإنها ما زالت تحتاج إلى جهود أخرى من الباحثين" (7) .

هذا هو دور الريادة التي تترك لدى القارئ انطبعا عن ثقل و جسامة مهمة من فتحوا الباب أمام الباحثين ومهدوا السبيل لكل محاولة لاحقة، و الشهادة أن الركبي قد كفى الباحثين اللاحقين مشقة الجمع والتحقيق و التنقيب عن المادة من مصادرها القصية، ورغم ذلك نجده يبرر عدم كفاية جهوده بقوله: "لأننا ندرك أن إنتاجا كبيرا من النشر مازال

مخطوطا أو أنه في صحف ليست موجودة بالمكتبات الوطنية ، وقد كلفنا هذا البحث مجهودات كبيرة في جمع مادته من مخطوطات أو من صحف أو من مراجع نادرة" (8). لذلك لم يكن جامعا للمادة فحسب بل محققا فذا ومؤصلا نادرا في نقلها، فلا نتفاجأ أبدا إذا لم نجد أثرا لبعض النصوص إلا في مؤلفاته، حيث نقلها لنا من مصادرها المفتقدة الآن، وهذا ما يولي أعماله النقدية التأسيسية منزلة رفيعة وطليلية لدى أهل الأدب من الباحثين والأكاديميين والنقاد، لأنها تحمل مشروع نظرية جدية يسعى صاحبها إلى تحقيقه عبر جمع و تصنيف و تحليل الأنواع النثرية التي تشكل قوام هذه النظرية.

ج/ نظرية الأنواع النثرية عند عبد الله الركيبي : و قد قسمها إلى قسمين:

I - أشكال نثرية تقليدية :

1- / الخطابة

والتي يأتي على تغطيتها و التأسيس لها منذ العصر الجاهلي في نسق كرونولوجي موسع و صولا إلى عصرنا الحديث، طاويا في كل ذلك عصور: صدر الإسلام، الأموي، العباسي، الأندلسي و صولا إلى جيل جمعية العلماء المسلمين، ابن باديس و البشير الإبراهيمي وغيرهما، ليخلص إلى دراسة خصائص و مميزات خطبهم .

2 / - الرسائل:

ويقسمها بدورها قسمان من حيث أسلوبها ، تقليدي / تجديدي، ثم يشرع في تحقيق بعض هذه الرسائل، ما يقوده في كثير من الأحيان إلى إعادة النظر في نسبتها ، و ينسب أخرى مجهولة لأصحابها لأول مرة من كتابات الأمير عبد القادر ، أحمد باي ، محمد الشاذلي القسنطيني، و رسائل نادرة أخرى دارت بين الثوار و قادة جيش التحرير .

3 / - أدب الرحلات:

ويبرز له أهمية بالغة كونه من أكثر الأشكال تطورا في تاريخ الجزائر، بالإضافة إلى اعتباره أحد أهم مصادر فن القصة، وقديما رأوا فيه " الفن الذي يبعد التهمة التي ترى أن الأدب العربي لم يعالج فن القصة " (9) ويأتي بأمثلة نادرة لمشاهير الرحالة الجزائريين، كابن الشريف، والورتلاني وغيرهما مع نصوص و قصص و مقطعات نادرة تعكس تفرد البحث و أصالته .

4/- المقامات و المناظرات:

يذكر في هذا المقام أدباء مغمورين تؤكد شهاداتهم بأنهم ساقوا أحاديث تضاهي أو تفوق ما جاء به المويلي صاحب حديث عيسى بن هشام كمحمد بن محرز الوهراني، هذا و قد قسم المقامة الجزائرية ثلاثة أقسام: 1- المقامة الأدبية الإصلاحية 2- المقامة الصوفية 3- المقامة الشعبية .

5/- القصة الشعرية:

جمع في هذا الجنس جمهرة من الفنون الشعبية تبويبا و دراسة و نقدا، سواء الشعرية منها أو النثرية، بإرادة مصممة على إدراجها أكاديميا في برامج الجامعة، وهو ما حصل بالفعل مباشرة بعد ندائه المسموع في الساحة الأكاديمية. و قد قسمها هي الأخرى إلى ثلاثة أقسام: من حيث المؤلف و أسلوب التعبير و الموضوع:

- النوع الأول : السير الشعبية ، أو قصص البطولات الشعبية كعنترة بن شداد ، سيف بن ذي يزن ، أبي زيد الهلالي... الخ فيما يشبه أدب الملاحم و البطولات.
- النوع الثاني: قصص دينية و خرافية، و قصص الحيوان.
- النوع الثالث: قصص الجزائريين من حكام و ملوك، و أولياء صالحين.

II - أشكال نثرية جديدة :

1/- **المقال الأدبي** : ذكر به كنوع أدبي دون أن يشأ الخوض في تفاصيله ، لأن هناك حسبه من أوفى الحديث فيه ، لما رأى أنه لن يضيف جديدا إذا ما أعاد اجترار مفهومه وخصائصه ، وشواهد.

2/- **القصة القصيرة**:

رغم أنه خصص لها جزءاً هاماً من كتابه **تطور النشر الجزائري الحديث** إلا أن الركبي قد خص موضوع القصة القصيرة الجزائرية ببحث مستفيض كان محور كتاب طلائعي شغل المثقفين و الأكاديميين في البلاد العربية، و نفذت جميع أعداده في أقل من سنة، و لم يدخل الجزائر إلا عدد يسير منها، آية على زيادة الكتاب، و أصالة مادته و غزارتها، و إحكام منهجه و دقته ، حمل عنوان : " **القصة الجزائرية القصيرة**" و الذي يقول عنه: "... تلقفه الدارسون و القراء و احتفلوا به بصورة لم أتوقعها في الجزائر و في البلاد العربية، و أصبح المرجع الوحيد في القصة الجزائرية القصيرة" (10).

والكتاب مرجع لا غنى عنه لباحث في هذا المجال، أكان من جانب الشكل المنهجي الدقيق أو من جانب المحتوى الذي كان موسوعة تاريخية تأسيسية لفن القصة القصيرة في الجزائر، من حيث النشأة والمؤثرات، أي خطواتها الأولى إلى النور، مروراً بتشكيل صورتها الطبيعية، وتدرجها عبر التيارات والمذاهب الأدبية، ومن أبرزها التيارين الرومانسي والواقعي .

ولم يكتف الناقد بالتأريخ لهذا الفن بالعربية بل خاض غمار تأصيل القصة الجزائرية القصيرة المكتوبة بالفرنسية و تطورها ، وهو دليل ليس بالأخير عن نزوعه الموسوعي في التأليف الذي لم يشأ أن يفرد جانباً من الموضوع بالدراسة دون الآخر، أو لغة كتبت بها القصة الجزائرية القصيرة دون الأخرى . فوضع بين أيدينا أنطولوجيا متكاملة في هذا الفن تعد الأولى من نوعها في الجزائر و العالم العربي، و يعزى نجاح هذا العمل الهام بشكل كبير إلى جانبه المنهجي المبتكر، بل و الغير مسبوق .

لقد كان المنهج في هذه الدراسة مثالا محتذى في ما تلاها من الدراسات المماثلة سواء في الجزائر أو في بقية البلاد العربية، وله المزية الكبرى في تهافت دور النشر العربية على طبعه وإعادة طبعه ، يقول الركيبي معلقاً على منهجه وفلسفته في تقنين مسارات دراسة هذا الفن المعقد: "هناك صعوبة يتعرض لها الباحث في القصة القصيرة و لا يتعرض لها بنفس القدر في الشعر، وهي المنهج الذي يدرس فيه إنتاج القصة القصيرة (...). وما وجد لا يعدو أن يكون إشارات قليلة لا تساعد الباحث على تلمس منهج معين لها (...). وبالرجوع إلى هذا كله تحدد منهج هذه الدراسة، فاخترت لها المنهج الذي يجمع بين النقد والتاريخ ."

وقد يحنو الباحث في ماهية لماذية هذا الجمع النادر بين منهجي النقد والتاريخ في دراسة واحدة، ولا يطيل الناقد حتى يبرر هذا المقصد موضحاً بأن "التاريخ هنا ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو لبيان خط تطور القصة القصيرة ومسارها العام (...). لأن الأدب يتطور بتطور حياة الإنسان، والتاريخ يساعد على تحديد هذا التطور، أما المنهج النقدي فهو الاعتماد على النص وما يصوره من تجربة إنسانية، و يعبر عنه من مضمون وواقع معاش" (11).

لقد أراد الركيبي من خلال هذا المنهج التكاملي الذي لم يغادر في إحاطته بتلايب القصة الجزائرية القصيرة لا النشأة و ظروفها و عواملها ، و لا المؤثرات و لا حتى المعوقات ، أن يسهم في رسم هوية هذا الفن العريق ، و هي آية الموضوعية الخليقة

بالعملية النقدية التي لم يتوانى فيها عن ذكر ما سجله التاريخ في سيرورة هذا الفن من سلبات و سقطات أسهمت بدورها في تشكيل ملامح الهوية القصصية الجزائرية، عازفاً عن السير في مضمار المميزات الفنية التقليدية المتحيزة .

3- / الرواية:

خصص لها الناقد فصلاً كاملاً في كتابه **تطور النثر الجزائري الحديث** مشيراً فيه جنوح الرواية الجزائرية إلى التعبير باللغة الفرنسية قبل السبعينيات ، أما البداية الحقة للرواية الجزائرية العربية فكانت بعد السبعينيات ، و هي البدايات التي وصفها بالساذجة سواء في موضوعها أو في أسلوبها و بنائها الفني(12).

وتمثل للرواية المطولة بغادة أم القرى لأحمد رضا حوحو، و **الطالب المنكوب** لعبد المجيد الشافعي ، و قد شكلت هذه المرحلة المولد الحقيقي للرواية الجزائرية الذي مثلته بامتياز: ما لا تذروه الرياح لمحمد عرعار، **ريح الجنوب** لعبد الحميد بن هدوقة و روايتي الطاهر وطار: **الزئزال و اللالز**.

4- / المسرحية :

ينطلق الركيبي كباحث و مؤرخ و ناقد من ترجيع الميلاذ الأول للمسرح الجزائري إلى سنة 1926 ، كما جاب المراحل التي مر بها المسرح الجزائري بحثاً و توثيقاً من لدن أساطينه من أمثال **محي الدين باش ترزي و جروة علاوة و هبي و رشيد قسنطيني** ، متمثلاً بالمسرحية التاريخية في نموذج مسرحية بلال للشاعر **محمد العيد**.

5- / النقد الأدبي:

وهو الفن الذي خصه الناقد بفصل معتبر من كتابه السابق ، و يعرض فيه لمناقشة قضية تقليدية/حدائية لا تموت، و هي علاقة الأدب بالنقد ، علاقة يستهلها حميمية و يختتمها جدلية، متعرضاً على طول الرحلة الشائقة إلى مسائل جوهرية كمهمة الأديب و وظيفة الناقد، منتهياً إلى علاقة تكاملية لازمة بينهما كما كان لدى الشعراء النقاد الذين تعايش فيهما الشعر و النقد بامتياز من أمثال أحمد المجاهد الحسيني ، و محمد بن مصطفى المشرفي في محاوراتهما المشهورة و معاركهما الأدبية الشعرية السائرة (13).

و يختم حديثه بأزمة النقد الأدبي التي ليست شيئاً آخر سوى أزمة الأدب ، و تتبع تطوراتها من الاستقلال إلى السبعينيات ، ووفقاً على مسبباتها و موانع التطور و معضلات الحياة الأدبية و النقدية في تاريخ الجزائر .

ثانيا : من أجل نظرية في الشعر الجزائري

لقد خصص د/ عبد الله الركيبي رسالته للدكتوراه لموضوع " الشعر الديني الجزائري " تحت إشراف الدكتورة سهير القلماوي، و قد مثل هذا الموضوع الجديد منعرجا حاسما في تاريخ الدراسات النقدية للشعر ، و بالخصوص زاوية الشعر الديني الذي يعد الركيبي أول من خصه بدراسة من هذا الحجم في الجزائر ، وهو مجهود يضاف إلى سلسلة أعماله الطلائعية التي أشرنا إليها آنفا .

و ما يجعل الرجل جدير بهذه المكانة في طليعة مؤسسي النقد الجزائري هو فتحه لأبواب استعصت على سابقه، أو لم يتم اكتشافها إلا بمجيئه كمجال تحقيق المخطوطات و جمعها و تصنيفها وتصحيحها و نسبتها لأصحابها ، و لم يكن هذا الجهد بالأمر اليسير ، بل أكاد أقول أنه ليس من اختصاص الباحث ، خاصة إذا علمنا أن " كثيرا من المخطوطات، أو أنها دوريات يصعب العثور عليها إلا بجهد و مشقة كبيرين، و أن ما طبع منها لم يتوفر نسخه بشكل يسهل للباحث عمله ، و منها أن المخطوطات نسخها أفراد غير مؤهلين ثقافيا، فهم لا يراعون قواعد اللغة و العروض ، الأمر الذي يثير مشكلة للباحث، إذ عليه أن يقوم بدور المحقق و المؤرخ و الناقد جميعا ، و بوجه خاص تلك الدواوين أو القصائد المخطوطة التي لا يوجد منها أكثر من نسخة " (14).

وكان مكن التجديد في هذا العمل النقدي الهام متمثلا في المنهج الذي يؤطره، وهو غير مسبوق في هذا النوع من الدراسات النقدية، إنه المنهج التاريخي النقدي الذي يعنى بالتيار أكثر مما يعنى بالقائل نفسه، وهو مع ذلك لم يتجاهل الشاعر، من حيث تفريقه بين أسلوب شاعر وآخر في تناولهم للموضوع ، ذلك أن الغرض الأول والأخير كان منصبا حول رصد الظاهرة الأدبية (الشعر الديني) الموحدة بين عشرات الشعراء في الموقف و الاتجاه العام . (15)

و قد عني الناقد باستجماع ما يمكن أن يشكل مدرسة شعرية جزائرية عبر عدة تيارات سنحاول تلخيص أهمها فيما يلي:

I - الشعر الديني الصوفي:

الذي يتجلى عبر مظاهر عدة أهمها:

1/- المدائح و التوسلات:

وهو أسلوب قديم في الشعر الإسلامي الذي يخرج الذي خرج الشاعر الجزائري عن ذائقته، و لاسيما في الأسلوب والموقف، و يكمن جهد التأصيل هنا في عناية الركيبي بعناصر صنعت تميز الشعر الديني الجزائري والمتعلقة أساسا بالبيئة وآثارها في ذبوع غرض المدائح.

كما فرق في هذا الغرض بين الشاعر الصوفي و المصلح، من حيث أن الأول يعنى بمدح الجمال والفناء فيه معرفة وكشفا تجاه ذات النبي صلى الله عليه و سلم، واتباع معارجه إلى خالقه، والثاني ينفرد بوصف الجهاد وأثره في الدفاع عن الإسلام، و ذكر مآثر أهل البيت، والصحابة ، والتابعين . (16)

2/- التصوف الخالص:

وهو ربط للصلة بين الشعر الصوفي الجزائري و التراث الصوفي الإسلامي ، بالإضافة إلى ما اعتلقه من تيارات أجنبية و كان في كل ذلك مفسرا و شارحا لعدد المصطلحات و الرموز الصوفية التي درجت في معجم الشاعر الصوفي الجزائري في ابتهالاته كالكشف ، و المعرفة، و الفناء، و المشاهدة، و وحدة الوجود ... و شرحه ذلك المعجم بمفهوم المتصوف الجزائري لا بالمفهوم الشائع في التراث الصوفي . (17)

ويخلص إلى أفراد الشعر الديني الملحون بفصل خاص، مناقشا فيه أصالة هذا الفن وزخمه التاريخي والأسطوري، و ثرائه الثقافي، و دوره في دفع عجلة الحياة الثقافية الجزائرية، منها هذا الباب برسم معمار شكلي للشعر الصوفي الجزائري، وهو عمل لا يخلو من الطلائعية في التنظير لهذا النوع الشعري المتأصل في الثقافة الجزائرية، معمار يحترم فيه تدرج الأشكال و تطور المفاهيم و تتابعها في صورة تراتبية بنائية تدخل لأول مرة النقد الجزائري مجال النمذجة البنوية في التصنيف والتحقيب في دراسة الشعر وتأصيل خصائصه.

II - الشعر الديني الإصلاحي :

و يتفرع بدوره إلى أقسام دقيقة فصلها الناقد في الخطوات التالية :

1- الشعر المرتبط بالفكر الإصلاحي :

و هو المرتبط أساسا بردود الأفعال المناهضة للسياسات الاستعمارية ، و الذي أخرجته إلى الوجود فكرة الإصلاح الديني و الثقافي ، و تعدد وسائل الدعوة إلى الجهاد و تقصي أبعاده الدينية و ترسيخها لدى طبقات الشعب الدنيا ، و هي دعوة ملحة للعودة إلى

الكتاب والسنة والتشبيث بهما، مما فجر صحوة سلفية واسعة في تلك الطبقات، الشيء الذي أنشأ نوعا من الصراعات البينية في صفوف الإصلاحيين وخصوصا ضد معتقي الطريقة التي يروج لها الاستعمار بكل وسائله، بالإضافة إلى مهاجمة المصلحين للمتصوفة، مما أفرز ما يشبه المعارك الأدبية أو شعر النقائض بين تلك التيارات المتصارعة، و كان لهذا الصراع نتائج جمة في تطور الشعر الديني رغم تداعياته السلبية على العمل الإصلاحي المنشود. (18)

2/- تطور الشعر الإصلاحي :

و هو ما ختم به الناقد كتابه الطلائعي المؤرخ و الناقد لظاهرة الشعر الديني الجزائري التي أنهاها بالوقوف على مظاهر تطورها ، و ما لحقها من مسائل فنية ، كوظيفة الشعر لدى جمهور المصلحين، و معوقات هذا التطور من زحف الثقافة الغربية التي أوهنت القرائح الشعرية نظرا للاندواج الثقافي و اللغوي الذي انعكس سلبا على ثقافة الشاعر المنزوي في بيئة تخلو أو تكاد من النقد و النقاد .

ليحدد في خطوة لاحقة مواضع ذلك التطور حاصرا إياها في عنصري المضمون و الموضوع، دون أن يطال ذلك التطور الجانب الأسلوبي الذي يتبع ثقافة الشاعر التي أوهنتها العوامل السالفة. ومع ذلك فلم تخل الحركة التطورية في هذا الشعر من إيجابيات تدفع عجلة ازدهارها كدخول التيارات الرومانسية والرمزية والواقعية إلى الساحة الثقافية الشعرية مضية عليها طابعا جماليا، وموضوعات جديدة كالمرأة والحريّة والطبيعة والثورة، عوامل تسهم في إيقاظ همّة المجتمع الراكد، ونقد العادات والتقاليد البالية، والربط بين الجزائر والأمة العربية الأم، ونمو دوافع القومية و تأججها عبر هذه الأغراض التي سادت الأدب العربي في العصر الحديث. (19)

ثالثا : نحو تأسيس مدرسة نقدية أدبية جزائرية

من أجل أي تأسيس لآبد من تساؤل بل تساؤلات حول الإمكانيات المتوفرة للبناء، لذلك كانت تساؤلات عبد الله الركيبي تساؤلات مؤسس يستجدي عصره الأدبي وبلده العربي ملامح مدرسة ما لأدبه، ذلك أن العلوم الإنسانية نفسها ما هي إلا سؤال، وكان السؤال الجوهري الذي أقام عليه الركيبي مشروع مدرسة نقدية جزائرية يتبلور حول وجود " مجموعة من الأدباء والشعراء والقصاص اعتنقوا مذهباً أدبياً معيناً و التقوا حول شعارات أدبية، مذهبية، جمالية، وفكرية معينة، فوضعوا لهذه المدرسة قواعد وأسساً محددة، وعبروا عنها في إنتاجهم وأدبهم، وأصدروا بياناً (...). يوضح قناعاتهم الخاصة تجاه جملة من المسائل الأدبية التي تتصل بالشكل و المضمون شأن دعاء المدرسة (...). وهل هناك رؤية للكون والأدب والحياة جمعت بين الأدباء الجزائريين على الأقل في

العصر الحديث؟ و ماهو الأسلوب الذي يعبر عن رؤيتهم ويمكن أن يصنع إنتاجهم ومعتقداتهم بصيغة خاصة تجعل أدبهم خاصا ومستقلا عن الأدب العربي، ولعل في الأسئلة السابقة ما يشير إلى مفهوم المدرسة ". (20)

إنها تساؤلات شاقة على يطرح مستعصية على من يجيب ،و أي جرأة تلك التي حملت رجل علم على استنفار أهل الأدب من أمته لما التأمت لديه جملة من المعطيات جعل منها مقومات لمدرسة أدبية آمن بتحققها فخرج جاهرا بدعوته إلى معشر المنقذين ، و يالها من تساؤلات مضنية يشقى بها الإنسان .

يخوض الركيبي دعوته نحو تحقيق هذا الحلم الأثير، مقيما مقارنات بين آداب الأمم و مدارسها، جاعلا من ظروف الجزائر الخاصة التي كابدها كمتقف نقطة الانطلاق والتميز، والتقارب والتجانس في الإبداع كرابط بين المتقنين، تقارب يسمح بإنشاء مدرسة نقدية أدبية جزائرية تقارن بكل المدارس الإقليمية المحتلة بتميزها وخصوصيتها، رغم أن الأدب الجزائري لن يفقد دوره كعضو جوهري مهما اختلفت عن بقية أعضاء جسد الأمة العربية ولن يفصل عنها: " فبقدر ما يضيف الأدب الجزائري إلى الأدب العربي بقدر ما يسهم في تطوره وإغنائه بالتجربة، فيغذيه بخبرات جديدة في الرؤية والشكل والمحتوى، وبالتالي يثري الأدب العربي والأدب الإنساني، وهي قيمة التي سنتبقي للأدب عندنا وعند غيرنا، وهذا ما يميز أدبا عن آخر" (21).

رابعا : نحو منهج نقدي عربي لدراسة الأدب الجزائري:

ألح عبد الله الركيبي في السنوات الأخيرة عبر منتديات أدبية و ثقافية عدة عبر جامعات الوطن (العاصمة - عنابة خاصة) على ضرورة طرح قضية شائكة تتعلق بالمنهج النقدي للدراسات الأدبية الجزائرية الأخذة في التطور كما و نوعا في السنوات الأخيرة بشكل ملفت ، نقدا و تحليلا، و تأريخا ،و عرضا ، و قد آن الأوان حسبه كي نحدد نظرتنا في هذا المجال " كي نضع دراساتنا في مكانها المناسب من الحركة النقدية العربية و المعاصرة ، و حتى نبحت باستمرار عن المنهج الملائم ". (22)

يطرح الناقد ما يطرحه بلهجة واثقة بالنظر إلى ذلك الكم الهائل من الدراسات المحلية والعربية التي تناولت الأدب الجزائري في شتى فنونه، والتي اطلع على بعضها إن إشرافا وإن مناقشة، وذلك النقاش الأدبي الذي خاضته الصحف العربية بشأنه، والمنم عن ثقل وزن هذا الأدب في الميزان الإبداعي العربي، وبات من الضروري لهذا الأدب العظيم من نقد خاص به يوفيه حقه من الدراسة .

ومن هنا بزغت فكرة تأسيس منهج نقدي خاص بالأدب الجزائري في ذهن الركيبي، الذي هدف أولا وأخيرا إلى خط معالم الطريق التي سيسير فيها نقدنا المنهجي، مستشرفا في كل ذلك أفقا و سبل أخرى، و بدائل إبستمولوجية يمكن اعتمادها لمستقبل النقد الجزائري، بعدما استعرض في خطوة سابقة عديد المناهج النقدية التي تدارست الأدب الجزائري عبر مراحلها المختلفة، وصولا إلى المرحلة الراهنة التي تحدث بحرية مطلقة في الكتابة والنقد، مما ساقه إلى بعض الحقائق والقضايا التي يفرضها العصر .

وهو ما جعله يؤكد على ضرورة تحرير المبدع و الناقد بشرط أن نطالب هذا الأخير بمنهج واضح ، و قواعد معروفة حتى نتفادى السقوط في فوضى النقد أو فوضى الأدب، طارحا بديله الذي كان ها جسسه من البداية والذي خلص إليه بعد تجارب طويلة في الميدان، والمتمثل في اقتراح الأخذ **بالمنهج النقدي الجمالي الاجتماعي**. (23) منهج يلاحظ في تشكيله نزوعا واضحا إلى التكاملية في تناول، ولعله الأنسب لأدب المرحلة الراهنة لما كان يختص بالتعبير عن تفرد الأديب ومزاجه، ووعيه وثقافته، لأن هذا الفرد المعاصر يحيا في لحظة حضارية لها مستواها الفكري والثقافي والاقتصادي والاجتماعي المختلف.

لقد شعر الناقد الطلائعي بالحاجة الملحة للتفكير في مناهج نقدية جديدة خليقة بأجيال الأدب الجزائري القادمة ، و الحياة الأدبية الجزائرية الحافلة بالمتغيرات .

عودة هي للتجديد والمواكبة، ورؤية دقيقة لا تنقصها الحداثة، تسمو بصاحبها إلى درجة المؤسسين الطليعيين لأداب وثقافات أمهم، ذلك أنه أدرك استحالة بلوغ أية غاية مثلى أوهدف سام دون توسل منهج دقيق وواضح المعالم، لذلك كان التنظير النقدي لعبد الله الركيبي متجها تماما إلى المستقبل من خلال التزامه بالدعوة إلى مسألة المنهج وتجديده في كل منتدى ومناسبة أدبية و ثقافية، مذكرا في كل تواصل له مع أجيال المثقفين بأن سر دعوته عود على بدء هو عظمة الأدب الجزائري على تنوع فنونه، طارحا على الساحة الأدبية الجزائرية سؤالا طلائعيا أصيلا من قبيل: " لماذا لا يكون لنا منهج مستقل نابع من أصلتنا وخصوصية أدبنا، منهج يستفيد من تراثنا النقدي العربي الأصيل و من التراث النقدي الإنساني ". (24) ولا يمكن لصاحب هذا السؤال إلا أن يكون أحد عظماء الأدب الجزائري ونقده الذي أرساه على سكتة السائرة قدما..

الهوامش:

- (1)- د/ عبد الله الركبيبي : تطور النثر الجزائري الحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، الدار العربية للكتاب . القاهرة . الطبعة الثانية 1983 ص5.
- (2) - نفسه ص 5
- (3) - نفسه ص 6
- (4) - نفسه ص 8
- (5) - نفسه ص 7
- (6) - نفسه ص 7
- (7) - نفسه ص 8
- (8) - نفسه ص 8
- (9) - شوقي ضيف : فنون الأدب العربي - الفن القصصي ، دار المعارف بمصر 1956 ص6.
- (10) - عبد الله الركبيبي: القصة الجزائرية القصيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر - الدار العربية للكتاب - القاهرة 1983 ص9.
- (11) - نفسه ص 6 .
- (12) - تطور النثر العربي الحديث ص 199
- (13) - نفسه ص 241.
- (14) - عبد الله الركبيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - الطبعة الأولى 1981 ص 6 .
- (15) - نفسه ص 8 (بتصرف).
- (16) - نفسه ص 45 و ما بعدها.
- (17) - نفسه ص 240 و ما بعدها.
- (18) - نفسه ص 560 و ما بعدها.
- (19) - نفسه ص 631 و ما بعدها.
- (20) - عبد الله الركبيبي : الشعر في زمن الحرية (دراسات أدبية و نقدية)، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 1990 ص 170
- (21) - نفسه ص 177.
- (22) - نفسه ص 180.
- (23) - نفسه ص 185.
- (24) - نفسه ص 185.